الدَّور السُّوسيولوجي للأديبة الجزائريَّة: زهور ونيسي

The Sociological role of the Algerian novelist: Zuhur Ounissi

أ. لزهر فارس

جامعة العربي التبسِّي– تبسَّة

fares_lazhar@yahoo.com

ملخَّص:

يعالج هذا البحث قضيَّة الدَّور السُّوسيولوجيّ (الاجتماعيّ) للأديبة الجزائريَّة المعاصرة: زهور ونيسي؛ ويفرِّع هذه القضيَّة إلى أربعة مسائل، أوَّلها: زهور ونيسي بين الاجتماع والإبداع. والمسألة الثانية، هي: زهور ونيسي والأدب النِّسويُّ. والمسألة الثالثة، هي: أدب ونيسي وقضايا المجتمع. أمَّا المسألة الرابعة والأخيرة، فهي: الاجتماع في رواية (لونجة والغول) لزهور ونيسي، باعتبار هذه الرواية أنموذجًا حيًّا للانشغال السوسيولوجي في أدب ونيسي.

الكلمات المفتاحية: الدَّور السُّوسيولوجيّ، زهور ونيسي، الأدب النِّسويُّ.

Abstract:

This research deals with the issue of the sociological role of the contemporary Algerian female writer: Zohour Ounissi. The topic is subdivided into four issues; the first of which is: Zuhur Ounissi between society and creativity. The second issue is: Ounissi, and Feminist Literature. The third issue is: Ounissi's Literature, , and community issues. As for the fourth and final issue, it is: society in the novel (Longa and the Ghoul) by Zuhur Ounissi, as this novel is a living model of sociological preoccupation with Ounissi's literature.

Keywords: the sociological role, Zohour Ounissi, feminist literature.

مقدمة:

يعدّ الدَّور السُّوسيولوجيّ (الاجتماعيّ) للأديب من أهمّ الأدوار المنوطة بالأديب الجزائريَّ المعاصر، وتعد زهور ونيسي من أشهر الأسماء الأدبية المعاصرة التي تجلى الدور السوسيولوجي في أدبها؛ بذلك سنعالج في هذا البحث أربعة مسائل، أوَّلها: زهور ونيسي بين الاجتماع والإبداع، حيث يبيِّن موقع الأديبة الجزائرية ونيسي بين خُلطة المجتمع الجزائري، وعزلة الإبداع الأدبي. والمسألة الثانية، هي: زهور ونيسي والأدب النِّسويُّ؛ حيث يبيِّن إشكالية هذا المصطلح من منظور اجتماعي، ويُظهر مدى تكريس أعمال الأديبة ونيسي لهذا المفهوم الاجتماعي للأدب النسويِّ. والمسألة الثالثة، هي: أدب ونيسي وقضايا المجتمع؛ وفيه تبيان للقضايا التي عالجتها ونيسي في مقالاتها، وقصصها، وورواياتها، وأهمها: ظاهرة الهجرة، والصِّراع الطبقيّ. أمَّا المسألة الرابعة والأخيرة، فهي: الاجتماع في رواية (لونجة والغول) لزهور ونيسي، باعتبار هذه الرواية أنموذجًا حيًّا للانشغال السوسيولوجي في أدب ونيسي. وبهذا كلِّه يظهر الدَّور السُّوسيولوجي الفاعل للأديبة الجزائريَّة: زهور ونيسي، الذي أغفلته كثير من الدِّراسات النَّقديَّة، حين عكفتْ على نصوصها الفنيَّة، لاسيما الرِّوائيَّة، دون أن تنظر في أبعادها الاجتماعيَّة.

01- زهور ونيسي بين الاجتماع والإبداع:

الكاتبة (زهور ونيسي) مَعلم من معالم الفكر الأدبي في الجزائر، كما أنها غنية عن التعريف في بلادنا، ولا تحتاج إلى كثير من التَّعريف في مختلف الأقطار العربية،

وهي معروفة مِن قبل المهتمين بالدراسات العربية في الغرب وأمريكا.[1] والكاتبة ونيسي من مواليد1936م بقسنطينة (سيدي جليس) مدينة العلم والعلماء والمفكرين، درست في المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. التحقت بالثورة المسلَّحة فشاركت في العمليات القتالية، حيث تحمل وسام المقاوِم، والتحقت بجامعة الجزائر العاصمة؛ لمواصلة دراستها فحصلت على جائزتين، إحداهما في الأدب، والثانية في الفلسفة.

تقلَّدت عدة مناصب عليا ثقافية وإعلامية واجتماعية وسياسية، عملت مدرسة قبل الاستقلال وبعده، فكانت أستاذة أكثر من 20 عامًا، بدأت بالمدرسة الحرة. وفي عام 1970م توقَّفت عن التدريس لتشغل مهمة مديرة تحرير مجلة (الجزائرية) التي أسَّستها، وكانت لسان الاتحاد الوطني للنساء الجزائريَّات.

وإلى جانب كونها عضوا في لجنتي التربية والثقافة الدائمتين للشؤون الاجتماعية سنة 1982م، ثم وزراة التربية سنة 1989م، وهو آخر منصب سياسي توَّجت به نضالها، كانت عضوا في المجلس الشعبي الوطني، حيث إنها تعتبر أول امرأة تقلَّدت منصب وزير في تاريخ الجزائر سنة 1982 م، وحملت من أجله وسام الاستحقاق الوطني.

[1] عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث (تاريخا، وأنواعا، وقضايا، وأعلاما) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 253.

وقد تفرَّغت السيِّدة زهور ونيسي للكتابة بعد هذا، فكانت لها كثير من المحاولات في القصة القصيرة وكذا المقال. والكاتبة نشرت أغلب مقالاتها في كلٍّ من مجلة (الجزائر) ومجلة (الجيش). وبعد الاستقلال في **(المجاهد)** و**(الشعب)** وكانت أول ما كتبت في مقالات **(البصائر)** أن تهاجم المعمِّرين وتنادي باحترام المرأة، والدفاع عنها عام (1953– 1954) وترى أن عقلية الرجال متحجِّرة جدًّا، كما كانت تدعو إلى الدِّفاع عن الحرية في مرحلة **(الشعلة)** وقد تناولت معظم شتَّى المواضيع بالدِّراسة والتحليل، سواء كانت اجتماعية، أم سياسية، أم ثقافية، وهي أوَّل كاتبة باللغة العربية، وأوَّل امرأة خاضت قضايا امتها؛ بكثير مِن الاهتمام والالتزام في مختلف المراحل التي عاشتها أمتها الإسلاميَّة، وبلادها الجزائريَّة. وهي التي تقول: "**الفن هو علاقة تفاعل وانسجام، ورفض بين الواقع والفنان، هو الصورة الطموحة التي يركن إليها الإنسان ومثاله، والفن الملتزم شعرا كان أو نثرا أو نحتا أو لحنا، قيمته تنبع من مدى قدرته على الاستجابة لمتطلبات الشعب، ومدى ارتباطه بحياة الإنسان بالأمة. والفنان هو جسر [يمتدُّ] في الماضي والحاضر والمستقبل، ليرسم لوحاته الأصلية بالأمة، من خلال الحاضر**"[1]. فالفنان في نظرها هو جسر للعبور من الماضي للمستقبل عن طريق الحاضر.

وفي حوار أجرته (زينب الأعوج) التي تشرف على سلسلة (دفاتر نسائيَّة) مع الأديبة والمبدعة **زهور ونيسي**، تقول: إنَّ "زهور ونيسي لا تتبنَّى الثقافة

[1] زهور ونيسي: مقال، مجلة المجاهد، الأسبوعية، عدد 24 مارس 1980.

الرسمية، وأنها تلهمها كروافد من روافد التجربة الثقافة". فزهور ونيسي تعتمد على الثقافة العالمية، ولا تهمل الثقافة غير العالميَّة. والأولى– في رأي ونيسي– تفقد أصولها ومدارها الشعبي، وهي دون الثقافة الشعبية الشفوية غير العالميَّة (فولكلور).

والنص الأدبي الذي تعتمد عليه **(زهور ونيسي)** في كاتباتها له جذور فلسفية، وبالتالي، يصبح بين الأدب العالمي والأدب غير العالمي، أي بين الفلكلور والمقدس في المدار الشعري، فالنص في تصورها حِرفة الكاتب يجب أن يكون حرا في معالجته، والحداثة حاضر، وكل شخص ابن الحاضر حتى ولو جاوز الخمسين، كما أن الحداثة لا يجب أن تكون منقطعة مع الأصوات، فالكتابة نفسها صراع مع الموت، وهي الباقية بعد فناء الجسد؛ لأن نقطة الحداثة في الدائرة تمس في ختامها نقطة البداية وهي الماضي. وعندما أقول الماضي فإنني لا أقصد الفكر الأسطوري، لأنه فكر الاضطهاد بطبيعته "صحيح أن التجربة فردية، ولكنها حتما تعبِّر عن ذاكرة جماعيَّة"[1].

ونفهم من هذا الحوار أن **(زهور ونيسي)** تبدو مواكبة كل التَّجارب الحديثة في الكتابة، أسلوبًا، ومحتوى، ولغة، وكأنها تجد الوقت اللازم لأوَّل مرة لتستثمر كل ما وعته من ثقافات وقراءات واطلاع أدبي وفكري؛ حيث ترى أنَّ النص حرٌّ،

---

[1] زينب الأعوج: دفاتر نسائية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج 2، 1993، ص 130، 131.

وأن الكاتب يكون حرًّا في معالجته، وتختم ذلك بأن هذه التجربة فردية، لكنها سوف تعبِّر عن ذاكرة جماعية.

وقد صدر للأديبة مجموعتان قصصيَّتان؛ الأولى بعنوان: الرَّصيف النائم، وهي مطبوعة عام 1967 بالقاهرة. والثانية بعنوان: على الشَّاطئ الآخر، وهي مطبوعة عام 1967 بالمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، ولها روايات أخرى بعناوين: من يوميات مدرسة حرَّة– 1979 م. ورواية لونجة والغول؛ صدرت عام 1994م. عجائز العمر؛ مطبعة دحلب، الجزائر. وكذلك مجموعتين قصصيتين بعنوان: الظلال الممتدة: مجموعة قصصيَّة عام 1985 م؛ المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب. روسيكادا؛ قصص قصيرة عام 1998م، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر.

كما لها مقامات كثيرة في السياسة الجزائرية، نشرتها في الصحافة الوطنية ومقالات حول أدب الطفل، ومنها هذا المقال تحت عنوان: "واقع وآفاق تجربة أدب الطفل في الجزائر" من جريدة الأحرار، وفيه إشارات اجتماعية مهمَّة، ومن محتواه: "إنَّ تجربة الكتابة في ميدان أدب الطفل، لا تنفصل عن الكتابة بوجه عام والمحيط الثقافي الذي يجب أن يكون من المفروض أن يؤثِّر ويحرِّك هذه العملية الإبداعية، ورغم ذلك نجد أنَّ بعض الشَّخصيات في الكتابة للطفل تارة إبداعية، وتارة تقليدية، وتارة أخرى تغوص في البحث داخل التراث الأدبي والإبداعي وتنمية الخيال لديه،

لكنها تبدوا تجارب ضئيلة بالمقارنة مع تجارب عربية وغير عربية أخرى، لا أريد أن أشخِّص، ولكن الأسباب التي أدَّت إلى هذا النقص كثيرة وكثيرة جدا،وأهمها غياب التخصص؛ سواء في الكتابة أو في الطبع أو في الجوانب الفنية الأخرى، وبالموازاة مع ما تصدره دور النشر العربية يبدو أننا نفتقد اهتمام الطفل يومًا بعد يوم؛ لما تصدره التجارب الخجولة، والموجودة في الجزائر، وحتى الوطن العربي"[1].

(زهور ونيسي) لم تهتم بجانب واحد من الكتابة، بل نجدها قد ألمت بجوانب عديدة؛ حتى إنها لم تهمل جانب الطفولة، حيث ترى أن ميدان أدب الطفل لا ينفصل عن الميادين الأخرى، لكون المغامرة فيه تبقى ناقصة؛ وهذا راجع كما ترى الأدبية إلى انعدام التخصص بشكل أو بآخر، ولقد سجّل اسمها ككاتبة مغربية في قاموس الأدب النرويجي الفرنسي والاسكتلندي الصادر بجامعة نيويورك وموسوعة (أدبيات عربيات في القرن العشرين)[2].

والكاتبة نجدها جسدت معاناة شعبها وأمتها في الكثير من المقالات– التي سبق ذكرها– حيث طرحت فيها موضوع المرأة، ومن ذلك أيضا نجد مقال: **(إلى الشَّعب)** حيث طرحت فيه الكاتبة قضية المرأة، وحقها في التعليم والمشاركة في بناء المتجمع وتنميته

[1] زهور ونيسي: "واقع وآفاق الطفل في الجزائر.. تجربة خجولة ينقصها التخصُّص" جريدة الأحرار، العدد 279، الاثنين: 1998/01/25، ص17.

[2] زهور ونيسي: روسيكادا، دار هومة، الجزائر، 1998، ص 01.

وأسلوبها في مقالاتها أقرب إلى الأسلوب الأدبي أو الأسلوب الصحفي منه إلى الأسلوب العلمي، وتعد تجاربها في كتابة الرواية جديدة للغاية، فهي تواكب التجارب الحديثة، في الكتابة الروائية، أسلوبًا، ومحتوى، ولغةً[1]. وكانت روايتها (لونجة والغول) تجسد بصدق ذلك الفن، وهذه المعاناة[2].

02- زهور ونيسي والأدب النّسوي:

لم يكن الأدب والشعر وقفا على الرجال فقط، وإنما شاركت فيه النساء أيضا، وإننا نطالع في هذا الأدب، كل الأنواع الأدبية من القصة، والمقالة، والرواية. وعند ملاحظتنا للمسار الأدبي للمرأة، نجد أنها حقَّقت وجودها الأدبي مثل الرجال تماما، إلا أن أدبها تعرَّض إلى كثير من العراقيل، والعقبات حالت دون مساواة أدبها بأدب الذكور، ونذكر من هذه العراقيل:

1- التعصب من قبل الرجال، وعدم اعترافهم بأدب المرأة؛ لاعتقادهم أن مكان المرأة المنزل لا خارجه.

2- خضوع المرأة للتقاليد الاجتماعية التي فرضت عليها التهميش، فجمدت طاقتها الإبداعية والفكرية، كانت هذه التقاليد تنظر للمرأة نظرة شهوانية، وترى أن وجودها في المجتمع مدعاة إلى إثارة الفتنة، وتشجيع على الانحلال، ففرضت عليها ضريبة العزلة والتهميش.

---

[1] زينب الأعوج: دفاتر نسائية، ج 2، ص 128.

[2] المرجع نفسه، ص 02.

3- وضع المرأة الأدبي والثقافي الصَّعب، حيث لم يكن يسمح لها المشاركة في مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية، وكل واحد منا يعلم أن للمرأة عالما، كما للرجل عالمه، ولكل منهما تصورات ونظرات للحياة تختلف عما عند الآخر؛ فكما أن هناك فوارق طبيعية ناتجة عن الفوارق الجنسية والجسمية تقتضي انفراد أدب الرجل عن أدب المرأة؛ لأن أدب المرأة مرتبط بتركيزها الذهني والنفسي، وأشياء أخرى تابعة لعاطفيَّة المرأة وحساسيتها[1].

والأدب يعد فنًّا قوليا أداته الكلمة وفنيته هذه تعني ارتباطه بالوجدان والعاطفة؛ والسَّبب الرئيسي الذي يرجع إليه تفوق الرجل على المرأة- كما يرى البعض- في المجال العقلي، أنها لم تتح لها الفرصة لمجابهته، أما تفوقها في المجال الفني فهو شيء طبيعي، يرجع إلى تكوينها البيولوجي والبسيكولوجي.

وقد أوردت الأدبية المعاصرة (مي زيادة) ملاحظة طريقة في سياق دفاعها عن ترجل المرأة، إذا هي برعت في علم أو فن، "**أليس من الغريب على الرجل إذا برز في الشعر والفن أو الفلسفة، تأنَّث بعض الشيء، بمعنى أن يرقى فكره وتصقل عواطفه، فكيف تتحول العوامل التي يتأنَّث بها الرجل، فتكون عند المرأة مدعاة للترجُّل**".[2]

[1] سعد بوخالفة: الشعر النسوي الأندلسي، أغراضه وخصائصه الفنية، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ص24.

[2] مي زيادة: حلية الطراز، دار الكتاب العربي، بيروت، 1952، ص 53.

والمرأة في الجزائر عانت من الظروف نفسها، التي عاشتها أخواتها في مختلف الأقطار العربيَّة، وتعرَّضت لجميع العراقيل والعقبات، التي حالت دون إنتاج وفير. وإنَّ المتتبِّع لنشأة الكتابة النسويَّة (النسائية) في الجزائر باللغة العربية، يجدها قد مرت بمرحلتين: مرحلة تمهيدية ظهر فيها المقال، ومرحلة المحاولة القصصيَّة.

1- المرحلة الأولى: "تبدأ سنة 1954 أي مقترنة زمنيا باندلاع الثورة؛ من خلال مساهمات نثرية تمثَّلت في مقالات اجتماعية تمحورت حول قضيَّة المرأة في المجتمع الجزائري.

2- المرحلة الثانية: "تمثلها المحاولات القصصية التي يمكن عدها بداية حقيقية للقصَّة".[1]

وإذا نظرنا إلى المواضيع التي عالجتها المرأة الجزائرية؛ نجدها تطرَّقت إلى مختلف المواضيع التي تمس المرأة الجزائرية في المجتمع الجزائري، وخاصة الحياة الاجتماعية.

وأديبتنا تناولت مختلف الأنواع الأدبية، فكتبت في المقال، وأيضا في الرواية والقصة، ومن هؤلاء الأديبات الجزائريات، نجد الكاتبة (زهور ونيسي) التي كتبت عدة مقالات في الكثير من المواضيع الاجتماعية، وخاصة ذات الصلة الوثيقة

[1] باديس فوغالي: بنية القصة الجزائرية عند المرأة، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف: عمار زعموش، جامعة قسنطينة، 1996، ص 56.

بالمرأة، وقد مارست الكاتبة، المقالة الأدبية والصحفية بنوعيها؛ خلال الثورة وبعد الاستقلال.

وقد نشرت الأديبة (زهور ونيسي) أغلب مقالاتها في مجلة الجزائرية؛ وذلك لأنَّ كل عدد كان يحتاج إلى مقالة، ونجد الكاتبة تعرضت في مقالاتها للمواضيع الآتية:

1- الوضع العام للمرأة الجزائرية .

2- أحاديث عن الثورة الاشتراكية.

3- القضايا الاجتماعية.

4- أحاديث في الفن والأدب.

5- الإعلام وعلاقته بالثورة الاشتراكية.

كما نشرت عدة مقالات في كل من (الجيش) و(المجاهد) و(أول نوفمبر) و(الشعب) والكاتبة جسدت معاناة شعبها وأمتها في الكثير من المقالات، وإلى جانب الكاتبة (زهور ونيسي) نجد الكاتبتين: (فريدة عباسي) و(لويزة قلال)... وغيرهما حيث مارستاهما أيضا كتابة المقالة، فأغنتا الحركة الأدبية النسوية في الجزائر[1].

[1] زينب الأعوج: دفاتر نسائية، ج 2، ص 127- 128.

أما في مجال القصة ، فنجد أن الكاتبة برعت في هذا المجال، وأبدعت فيه حق الإبداع، وبذلك كانت لها مكانتها مع الكتاب الجزائريين الكبار. فقد صدرت لها مجموعة قصصية أولى بعنوان (الرصيف النائم) وقصص هذه الأخيرة جسَّدت الواقع الذي عاشته القاصَّة. ونجد من ضمن هذه القصص: قصة (عقيدة وإيمان) وكذا قصة (فاطمة) وأيضا قصة (مازلنا نقسم) وكذا قصة (زعرورة الملايين). وكلُّها قصص ذات طابع اجتماعي.

أما مجموعتها القصصية الثانية (على الشاطئ الآخر) فقد تضمنت ست عشرة (16) قصة، تناولت في مجموعها موضوعات ثلاث، هي:

1- الجانب النضالي وقد جاء في كل من قصة (المرأة التي تلد البنادق) وكذا (وراء القضبان) وأيضا قصة (الدرب الطويل) فكل هذه القصص نضالية القسمات؛ تحكي واقع النضال الجزائري إبَّان حرب التحرير الوطني.

2- جانب الهجرة إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط؛ وتجسِّده قصة (على الشاطئ الآخر).

3- الجانب الاجتماعي المحض؛ ويشمل خمس قصص هي: (سمية) و(اللوحة) و (الثوب الأبيض) وأيضا (المصير) و(هؤلاء الناس). وقد تناولت الكاتبة في هذه القصة، الوضع الاجتماعي للمرأة الجزائرية، وكذا مختلف المشاكل الاجتماعية؛ من بؤس وفقر وحرمان.

والكاتبة تعاملت مع قصصها بلغة مخصوصة، هي لغة الواقع؛ لأن معظم قصصها واقعية في غالبيتها تجسِّد واقع النضال الجزائري. وقد وضعت الكاتبة لقصصها ثلاثة أبعاد؛ كان البعد الأول هو البعد الوطني النضالي الذي يمثل الكفاح المسلح والثورة الجزائرية، والبعد الثاني هو البعد الاجتماعي، حيث عالجت فيه المواضيع الاجتماعية التي تمس المجتمع الجزائري، والبعد الثالث هو البعد النفسي الذي لعب دورا فعالا في التعبير عن الحلات النفسية والشعورية، وكان محرِّكا لصيرورة الأحداث.

وتُعَدُّ تجاربها في كتابة الرواية جديدة للغاية، وهي تواكب التجارب الحديثة في الكتابة الروائية أسلوبا ومحتوى ولغة [1]. وإبداعها الفني الروائي ينطلق من الموروث الثقافي والعلمي الذي تزوَّدت بهما خلال مراحل تعليمها في مدارس جمعية العلماء المسلمين، وما كمنت تقدمه لها هذه الأخيرة (الجمعية) في مدارسها من أدب وثقافة عربية أصيلة انعكست في كتاباتها. كما انعكس ذلك على الواقع الاجتماعي المر، الذي فرضه المستعمر الفرنسي على الشعب الجزائري، حيث كانت **(زهور ونيسي)** واحدة من أولئك الذين تعذبوا وتألَّموا كثيرا، ولقد عرفت الكاتبة كيف تستثمر ذلك الزخم من تناقض وتفسخ وظلم وعبودية وقهر في عملية إبداعية تشفي بها غليلها المدفون في أعماق نفسها.

فكانت رواية **(لونجة والغول)** تجسِّد بصدق هذه المعاناة، وهذا الشكل الإبداعي (الرواية) عند الكاتبة يتميز لدى الدارسين بخصائص تختلف باختلاف

[1] زينب الأعوج: المرجع السابق، ص 128.

القراءات من السطحية إلى العميقة والمتفحص لروايتها يعتقد أنها تحاول سرد وقائع وأحداث وقعت فعلا، وهي تجمع في كتابتها بين الواقع والفن، وفي رواياتها تسير وفق المعايير الفنية التي يتفق حولها جميع النقاد والدارسين إلى جانب معالجتها للقضايا الثورية والاجتماعية– كما ذكرنا آنفا– لا يخلو أسلوبها وتراكيب لغتها وعملية اختيار ألفاظها من جمال وتذوق شعوري وتصوير مجمل واف لما تطرحه في روايتها، فطبيعة تكوينها وسعة اطلاعها، جعلتها تنطلق في كتاباتها أكثر من غيرها من الكتاب، والمعالجة عندها؛ تعني إبراز وتشريح الحالات بلغة أكثر واقعية وموضوعية [1] .

والكاتبة بأعمالها هذه، تكون قد استوفت جميع الشروط لكتابة المقال والقصة والرواية، وهي بهذا امتلكت أدوات الكتابة القصصية والروائية؛ من لغة وتصوير وخيال ومعالجة، والفن الروائي القصصي، قد اكتمل عند الكاتبة بقوة الإبداع والخلق، لا بقوة المحاكاة والتقليد. وفنان الرواية سيجمع الباحث الاجتماعي، والمؤرخ والعالم النفسي، والكاتبة تسير في كتابتها وفق هذا التطور وهذا المنظور.

وقد تمكنت في روايتها، أن تقدم عملا لا تشويه فيه؛ وذلك نتيجة حسن استعمالها لأدوات البناء الروائي، ولم تكن تقصد بأعمالها، إمتاع القارئ ووضعه في موقف المتلذِّذ المستأنس برواتها وأحداثها فحسب، إنما كان لها توجه إيديولوجي واضح تبرز معاملة من خلال النسق اللغوي والتعبيري الجاف في بعض الأحيان، وخاصة أنها وليدة مرحلة مميَّزة من مراحل الجزائر الحديثة، فالاستعمار والجهل

[1] زهور ونيسي: روسيكادا، دار هومة، الجزائر، 1998، ص 01.

والأمية، جعل الكاتبة تتَّجه إلى عملية التشريح والتنقيب عن هذه الأسباب، وكتاباتها مرآة صادقة لهذا الواقع وما خلَّفه من آلام وجراح فكرية واجتماعية.

03- أدب ونيسي وقضايا المجتمع:

كانت للعرب أقاصيص في العصر الجاهلي، تحكي أيام العرب ووقائعهم وحروبهم، كما كانت لها ملامح شعبية في صدر الإسلام، والعصر الأموي، كالتي تصور المعارك البطولية بين الإمام علي- كرم الله وجهه- ومعاوية بن أبي سفيان.

وفي العصر العباسي، حين استقرت أمور الدولة ظهرت القصة العربية الخالصة، وكُتب بعضها بلغات، ولهجات محلية، إذا استثنيت هذا اللون من المقامات، الذي ابتكره بديع الزمان الهمذاني في القرن الرابع الهجري (4هـ) وما حكاه بلغات الكتاب من بعده[1].

أمَّا الرواية فتعد جنسا أدبيا مستحدثا في الثقافة العربية المعاصرة، وتبقى قليلة التراكم رغم الرصيد الذي أدركته منذ ظهورها مع منتصف الخمسينيَّات في كال من تونس والمغرب الأقصى، ومع مطلع الستينيَّات في ليبيا، ثم بداية السبعينيَّات في الجزائر وفي موريتانيا، وهي في ذلك يمسها هاجس التجريب

[1] حامد حنفي داود: تاريخ الأدب الحديث- تطوره، معالمه الكبرى، مدارسه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 160.

والتجاوز لأشكال الكتابة التقليدية بحثا عن الخصوصية.[2] فلقد ظهرت الرواية العربية الجزائرية متأخرة بالقياس إلى الأشكال الأدبية الحديثة، مثل المقال الأدبي، والقصة القصيرة، والمسرحية، بل أن هذه الأشكال الجديدة تعتبر حديثة بالقياس إلى مثيلاتها في الأدب العربي الحديث.

ولا شكَّ أنَّ الناس تعودوا على قراءة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، وتُرجمت معظم هذه الروايات إلى اللغة العربية، وأصبح الناس بعد ذلك يردِّدون أسماء كتابها، ويعرفون عنهم أشياء كثيرة، بينما لا نجد منهم كتاب النثر الجزائري العربي الحديث إلا القليل.

ولعل هناك ظروف كثيرة أسهمت في جعل من يكتب باللغة القومية مجهولا إلى حد ما، في حين تكون أسهمت في التعريف بمن يكتب باللغة الأجنبية في الجزائر، حتى إن بعض الدارسين للأدب الجزائري الحديث حين تعرَّضوا لهذا الأدب درسوا الآثار المكتوبة باللغة الأجنبية، ولم يشيروا لا من قريب ولا من بعيد إلى من يكتب باللغة القومية، فضلا عن الباحثين في البلاد الأوروبية شرقًا وغربًا، الذين احتفوا بالأدب القديم الذي كتب باللغة الفرنسية في الجزائر؛ حتى أن بعضهم اعتبر أن الكتاب الفرنسيين الذين ولدوا فوق أرض الجزائر من الكتاب الجزائريين، وذهبوا مذاهب شتى في البحث عن الأدلة التي ساقوها لتأكيد رأيهم.

[2] مجلة الآداب، معهد الآداب واللغة العربية، جامعة قسنطينة، العدد 2، 1995، ص 180.

وقد أسهمت في هذه الضجة التي أثيرت حول هذا الأدب عوامل شتى منها، أن أجهزة الإعلام والثقافة الفرنسية قد أعلنت هذه الفكرة؛ لكي تبيِّن بشدة أن الثقافة الفرنسية خلقت كتابا بارزين في الجزائر، وأن الاستعمار الفرنسي لم يكن معظمه شرًا أو سلبًا، وهذا لما أثمره من نماذج أدبية جيِّدة؛ شعرا ونثرًا أثرت الحضارة في الجزائر.

أمَّا فيما يتعلَّق بالرواية العربية الجزائرية، فنجد أن أغلب النقاد لم يتحدَّثوا عنها، وهذا راجع لكونها ظهرت مؤخَّرًا، فهي من مواليد السبعينيَّات، بالرغم من أننا نجد بذورا قد ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، ويمكن أن نلاحظ فيها بدايات ساذجة للرواية العربية الجزائرية؛ سواء في موضوعاتها أو في أسلوبها أو بنائها الفني، ونأخذ على سبيل المثال، قصة مطوَّلة بعض الشيء كتبها **(أحمد رضا حوحو)** والتي سماها (غادة أم القرى) وتعالج وضع المرأة، ولكن في البيئة الحجازية، وهناك قصة كتبها **(عبد المجيد الشافعي)** وأطلق عليها **(الطالب المنكوب)** وهي قصة مطوَّلة أيضا، رومانسية في أسلوبها وموضوعها، وهي تتحدث عن طالب جزائري عاش في تونس في أواخر الأربعينيَّات، أحبَّ فتاة تونسيَّة وسيطر عليه حبُّها، ونجد بأن مضمونها ساذج مثل طريقة التعبير فيها[1] على رأي الدكتور عبد الله ركيبي.

[1] عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، 1978، ص 198-200.

ويمكن القول إنَّ تأخُّر ظهور الرواية الفنيَّة إلى الفترة التي ذكرناها؛ يعود إلى أن هذا النوع من الفن صعب جدا، أو يحتاج إلى التأمُّل الطويل وإلى صبر طويل، ثم يتطلَّب ظروفا ملائمة تساعد على تطوره. وفي مقدمة هذه العوامل نجد أنَّ الكتاب الجزائريين الذين كتبوا باللغة القومية أدباءً عربا اتجهوا إلى الرواية التي تمسُّ قطاعا من المجتمع مجاله واسع، والشخصيات تختلف اتجاهاتها، وتتصارع أهواؤها ومواقفها، ومنه فالكاتب يحتاج إلى تأمُّل طويل في الحياة الاجتماعيَّة.

ثم إنَّ الرواية تتطلب لغة مرنة قادرة على تصوير بيئة كاملة، وهذا ما لم يتوفر لها سوى بعد الاستقلال، كما أن كتاب الرواية في الجزائر لم يجدوا أمامهم نماذج جزائرية يقلِّدونها، خلاف الأمر بالنسبة للكتاب باللغة الفرنسية الذين وجدوا نماذج جيِّدة وغنية في الأدب الفرنسي. ومع ذلك فإن كتاب الرواية العربية قد أتيح لهم أن يقرؤوا في لغتهم عيونا واسعة في الرواية العربية الحديثة والمعاصرة، ولكنهم لم يتوصلوا في هذا الإنتاج إلا في فترة زمنية قريبة بسبب الظروف التي عاشوها وعاشتها الثقافة القومية في الجزائر، لذلك فإن البدايات الحقيقية التي يمكن أن تدخل في مفهوم الرواية هي التي ظهرت في السبعينيَّات، مثل قصة (ما لا تذروه الرياح) لمحمد عرعار 1972 ثم رواية (ريح الجنوب) للكاتب القصصي **(عبد الحميد بن هدوقة)** 1970[1] .

ويعتبره الباحث **(أحمد شريبط)** أوَّل نص روائي جزائري كُتب باللغة الوطنية؛ صدر متضمِّنا معالم مبكِّرة للنص الروائي، ذلك هو نص رواية (ريح

[1] المرجع نفسه، ص 200-201.

الجنوب) للكاتب **(عبد الحميد بن هدوقة)** كما لا ينفي وجود محاولات سبقتْ هذه التجربة الناضجة، فلا بد من الاعتراف أن الباحث في النص النثري الجزائري يعثر على نصوص ظهرت قبل رواية (ريح الجنوب) تتوفَّر على عناصر غير نامية من معالم النص الروائي، بعض هذه النصوص يعود إلى سنوات الأربعينيَّات والخمسينيَّات والستينيَّات مثل: (غادة أم القرى) لـ**(أحمد رضا حوحو)** والطالب المنكوب لــ**(عبد المجيد الشافعي)** كما أسلفنا الذكر. وبالتالي يمكن القول إنَّ الرواية في مستوى أول نوع سردي نثري، وفي مستوى ثان يكون هذا القصص (حكاية خرافية).

وفي الوقت نفسه خيال ذو طابع تاريخي عميق، وأخيرًا فإن الرواية فن في أجزائها كما في مجملها، وهي تبرز في شكل خطاب موجَّه ليُحدِث مفعولاً جماليا؛ بفضل استعمال بعض المحسنات.

إنَّ الرواية مقطوعة نثريَّة خاصة؛ كونها تواجه الرُّوح الإنسانية والمظاهر الأكثر دقَّة، بل الأكثر تفاهة لوجود البشر، وهذا على جميع المستويات الاجتماعية والنفسية والأخلاقية، إن خاصية الرواية هي أن تبيِّن مقاومة الوقائع والأشياء والأفكار والمُثُل، وسيكون لها دور خاصة في مواجهة واقع الرغبة بحقيقة الحب. ثم إن هدفها هو تناول الإنسان والمجتمعات الإنسانية التي تعرف في الوقت نفسه أنها دخلت التاريخ وتفهم أنها تعيش تاريخا، ونلاحظ أن تاريخ البشر مصنوع من البشر، أو على الأقل مصنوع من قبل بعض المجموعات البشرية.

وتحتل فكرة المسؤولية حيِّزًا واضحا في تكوين الرواية، الذي نجده مرتبطا بتأسيس مجتمعات منظمة، كنها ذات بنيات مرنة؛ حتى تستطيع بعض المجموعات التي تكوِّنها التعبير عن نقدها وطموحاتها عبر الشخصية الروائية؛ فالرواية تتميز بالتناقصات الداخلية لفئة ما مع فئة أخرى، فالنص الروائي عند (زهور ونيسي) ذو طابع بانورامي؛ نفسي، واجتماعي، وإيديولوجي، وثقافي.

والرواية هي طريقة للكتابة ذات أشكال مرنة وقراءات شتَّى؛ تجمع الأفكار والخلافات الفكرية وتنشرها، ويمكن أن تستعير استعارات واسعة من أشكال الأنواع الأخرى، وجوهرها الأسطوري خاصة.[1]

وممَّا سبق يمكننا القول إن الرواية عند (زهور ونيسي) طاقة هامة في التعبير عن روح المجتمع وأزماته وطموحاته، وقد أخذت مكان الصَّدارة في الأشكال الأدبية عالميا وعربيا؛ لأنها الوعاء الأنسب للمرحلة التاريخية التي يمر بها العالَم، لذلك أصبحت الشكل العالمي المهم للثقافة. والرواية بعد ذلك أداة فنية للوعي يمكن بواسطتها رصد وضع المجتمع واستشعار أزماته العامة من خلال شخصيات الروائية الفردية.

[1] الطاهر حجار: الأدب والأنواع الأدبية، قدم له الدكتور محمد البدراوي، جامعة دمشق، دمشق، 1985، ص125، 127.

وقد سلطت الروائية (زهور ونيسي) هذه الأداة لبث الوعي بالأزمات التي تعيشها المجتمعات العربية، من خلال رصدها لواقع تلك الأزمات وتجسيدها في "أزمات أبطالها" العامة والخاصة.

ولقد عانت الجزائر من هيمنة الاستعمار الفرنسي ردحًا غير قصير من الزمن، اكسب شعبها لغة العدوِّ التي فُرضت عليه فرضا بعدما حرم من لغته الأصلية.... نتيجة هذا ظهر عدد من الكتاب الجزائريين استخدموا هذه اللغة في مجالات إبداعية، كالقصة والرواية والمسرحية والشعر.[1] ومن بين الذين عايشوا هذه الثورة وعاشوها أيضًا، ووقفوا عليها نشاط إبداعهم الكاتبة **(زهور ونيسي)**.

04- الاجتماع في رواية (لونجة والغول) لزهور ونيسي:

لقد صدر للأدبية زهور ونيسي كثير من الأعمال الأدبية، سواء في القصة أو الرواية، ويمكن اعتبارها من أوائل النساء الجزائريات اللواتي خُضن هذه التجارب؛ التي عالجت الواقع الجزائري بكل صدق وأمانة. "والكتابة الأدبية تعدها جسدا ثقافيا، تنطوي تحت لوائه كل الهواجس الأخرى المرتبطة بالحياة ومتغيِّراتها؛ لأنها هاجس لا يزول ويضمحل، بل يزداد لمعانًا وبريقًا، كلَّما صهرته الشَّدائد

[1] شايف عكاشة: النظرية الأدبية، ج 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 43.

وقولبته الظروف، والكتاب الجزائريون يكاد كل واحد منهم لا يخرج عن هذا الميل الجارف من حملة القلم ورواد الكتابة".[1]

والكاتبة لم تكن تترك جنسًا أدبيًا إلا وأبدعت فيه حق إبداع، ومن أعمالها الروائية نجد رواية **(لونجة والغول)** ويمكن القول إن هذه الرواية، التي هي عبارة عن مجموعة من المذكِّرات، ليست ملكا للكاتبة وحدها، بل هي ملك لكل امرأة جزائرية ولكل الشعب الجزائري؛ لأنَّها تعدُّ تاريخًا من تاريخه، وجزءًا من وجوده وكيانه، والتي تعبِّر عن دور المرأة الذي يعجُّ بالحركة والنشاط، فكاد المستعمر يحسب أن الثورة هي كل شيء: "**في البيت، وفي المدرسة... بل تحت عشبة وشجرة... بل وحتى في الهواء**".[2]

في عام 1994م صدر للكتابة الجزائرية (زهور ونيسي) عمل إبداعي جديد، هو روايتها الثانية: (لونجة والغول) بعد روايتها الأولى: **(من يوميات مدرسة حرة)** وهو جهد يُضاف إلى أعمالها الإبداعية الأخرى في القصَّة القصيرة وسواها، وقد صدرت الرواية عن مطبعة (دحلب) بالجزائر.[3]

وأحداث الرواية تنطلق من الإشارة إلى سنة 1830م بانتهاء العهد العثماني وسقوط البلاد تحت الاحتلال الفرنسي. فكانت هذه الأحداث تجري بين حي

[1] زينب الأعوج: دفاتر نسائية، ج 2، ص 130.

[2] عمر بن قينة: الريف والثورة في الرواية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 49.

[3] عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث، ص 253.

القصبة والميناء بمدينة الجزائر العاصمة، ثم تتركز في **(سبع سنوات ونصف)** وهو عمر الثورة الجزائرية، التي ضحى من أجلها الشعب الجزائري، بأغلى ما لديه، وقد كان **(أحمد)** زوج **(مليكة)** بطلة روايتنا من بين هؤلاء الضحايا الذين فدوا الوطن بأرواحهم، وذلك من أجل جزائر حرَّة، مستقلِّة، مزدهرة، فكان زوجها ثم والدها، شهداء الواجب الوطني.

وضمن هذا الجو المشبَع بالآلام والأحزان والمآسي، تتحرَّك شخصيات الرواية، فتأخذ هذه من تلك كرواية الشخصيَّة بالدرجة الأولى. وتبقى **(مليكة)** بنت السبعة عشر (17) ربيعًا، محور الرواية عبر فصولها السبع، وهي فتاة تضيق بواقع راكد، وتأمل في تحسين واقعها، وهي بنت لأب فقير يعمل في الميناء له سبعة أطفال.

وفي يوم من الأيام– وبالتحديد في أول نوفمبر 1954 م– استبشر **(محمَّد)** أبو **(مليكة)** وزملائه بإعلان الثورة ضد الاستعمار الفرنسي، هذا الأخير الذي حرمهم من كل حق في السعادة والفرح، والأمل في غد جديد؛ دون استعمار ودون استعباد واضطهاد. أما **(أم مليكة)** لم تعرف لها مهمة غير إنجاب الأولاد والسَّهر على تربيتهم والعناية بهم. وتبقى سمة القناعة والرضا في شكلها السلبي، قاسمًا مشتركًا بين الأبوين، ولكلٍّ منهما ماض يائس، وحياة بائسة لا تختلف كثيرًا عن حاضرهما.

و**(مليكـة)** التـي ترعرعت ضـمن هذا الواقـع البـائس وحيـاة الفقر والحرمـان والشقاء، تطمح إلى تغيير حياتها إلى الأحسن، فشبَّثت "**مليكة**" بشعاع أمل منبعث من ابن جارتهم **(سـليم)** ويتجسَّد في علاقة حبٍّ بينهما، ولكن خاطب (مليكة) واسمه **(أحمد)** يزعزع هذا الحبَّ، ويحول دون لقاء هذين القلبين.

و**(أحمـد)** شاب مكتمل الصفات، رجل له تجارب في الحياة، وبإمكانه بناء أسرة سعيدة، وتتقبله (مليكة) كزوج لها وذلك طبعا بعد موافقة والديها، وانطلقت حياتها معه؛ يغمرها الدفء، والحنان، والحب، والسعادة، وفي جو شاعري وهادئ، وجو رومانسي يضاعف من المناجاة والذوبان في عالم الحب، و**(مليكـة)** لم تكن تحلم يوما في حياتها بحياة مثل هذه الحياة الهادئة.

لكن عنفوان الثورة يجتذب الجميع، فيلتحق **(أحمد)** كالآلاف مثله من أبناء هذا الوطن بالثورة، ويسقط شهيد الواجب، و**(مليكـة)** حامل بطفلها منه، وبعد وضعها له، منحته اسم **(أحمد)** لتبقى ذكراه مجسَّدة في والده، وقد صارت أرملة بعد سنة من زواجها، أي عمرها ثماني عشرة (18) سنة.

ونظرا للتقاليد المتَّبعة في المجتمع الجزائري في تلك الفترة، أي في فترة الاستعمار الفرنسي، وأيضا بما أن **(مليكـة)** فتاة شابة لا تزال الحياة أمامها بأكملها، اضطرت **(مليكة)** إلى الزواج من كمال الأخ الأصغر لأحمد، كما أُجْبِرَ هو أيضا على ذلك تلبية لرغبة والديه، ولكن العلاقة بينهما لا تتعدَّى علاقة الأخ

بأخته، وبعد ذلك تطورت العلاقة، وتغيَّر الوضع وأصبح كليهما يأمل في حياة دافئة.[1]

وتحمل **(مليكة)** من **(كمال)** ويتشوَّق كليهما إلى بنت جميلة، تكون أختًا لأحمد، ولقد وقع جدال حاد، ومناقشة حارة بينهما حول اختيار اسم لهذه الفتاة، واقترح كمال مسبقا اسم **(نوَّارة)** لكن **(مليكة)** اقترحت اسم **(نجمة)** وأصرَّت عليه؛ لأنها كما قالت: "**أحبُّ النجوم، وهذه الكائنات الصغيرة اللامعة البراقة، كالأحجار الكريمة**".[2] ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فتفارق **(مليكة)** الحياة عند وضع الطفلة، وبدل أن يطلق كمال على طفلته اسم **(نجمة)** وفاء لزوجته وتخليدا ذكراها وتلبية لرغبتها التصق بأنانيته ورغبته في أن يطلق عليها اسم **(نوارة)**.

وهو يرى أن ابنته من **(مليكة)** هي ثمرة عطاء صادق... جاء كحلم جميل حلَّ وارتحل، خصوصا، وقد غدا ولهانا لفارقها، متيَّما بحبها، مفتونا بجمالها الذي اختفى في اللحد؛ حيث قال: "**هنا ترقد أمة الله مليكة، ولماذا لا يكتبون؟ هنا يرقد الألم، العذاب، الشباب، الجمال**".[3] وهو تعبير جامع لهمومه وعذابه، وحقيقة صاحبته، في النسيج الروائي كله.

---

[1] زهور ونيسي: لونجة والغول، مطبعة دحلب، الجزائر، 1992، ص 129.

[2] نفسه، ص 129.

[3] زهور ونيسي: لونجة والغول، المرجع السابق، ص 142.

خاتمة:

من كلِّ ما سبق؛ بدا جليًّا إلحاح الكاتبة على قيم النضال والتضحية والثورة، وحب الوطن، والتركيز على ما أصاب الإنسان الجزائريَّ من ظلم ألحقه به الاستعمار الفرنسي، فصادر منه حريته وأرضه، وهذا مما جعل الثورة حلمًا مشروعًا لم يتأخَّر في إعلان نفسه، كما جعل الاستقلال هدفًا لم تطل المسافة إليه كثيرًا، لكن دونه كانت التضحيات جسيمة، والدموع عزيزة، واختلفت الحظوظ في الظفر بنعمته، ومن المؤكد أن الثَّمن بالنسبة لأسرة **(مليكة)** كان باهظًا حقًّا.

قائمة المصادر والمراجع:

1. باديس فوغالي: بنية القصة الجزائرية عند المرأة، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف: عمار زعموش، جامعة قسنطينة، 1996.

2. حامد حنفي داود: تاريخ الأدب الحديث– تطوره، معالمه الكبرى، مدارسه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993.

3. زهور لونيسي: واقع وآفاق الطفل في الجزائر.. تجربة خجولة ينقصها التخصُّص، جريدة الأحرار، العدد 279، الاثنين: 1998/01/25.

4. زهور ونيسي: روسيكادا، دار هومة، الجزائر، 1998.

5. زهور ونيسي: لونجة والغول، مطبعة دحلب، الجزائر، 1992.

6. زهور ونيسي: مقال، مجلة المجاهد، الأسبوعية، عدد 24 مارس 1980.

7. زينب الأعوج: دفاتر نسائية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج 2، 1993.

8. سعد بوخالفة: الشعر النسوي الأندلسي، أغراضه وخصائصه الفنية، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.

9. شايف عكاشة: النظرية الأدبية، ج 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

10. الطاهر حجار: الأدب والأنواع الأدبية، قدم له الدكتور محمد البدراوي، جامعة دمشق، دمشق، 1985.

11. عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، 1978.

12. عمر بن قينة: الريف والثورة في الرواية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.

13. عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث (تاريخا، وأنواعا، وقضايا، وأعلاما) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

14. مجلة الآداب، معهد الآداب واللغة العربية، جامعة قسنطينة، العدد 2، 1995.

15. مي زيادة: حلية الطراز، دار الكتاب العربي، بيروت، 1952.